

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : ولقد اخترنا قبل هؤلاء المشركين قوم فرعون وهم قبط مصر { وجاءهم رسول كريم { يعني موسى كليمه E { أن أدوا إلي عباد ا } كقوله D : { فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى { وقوله جل وعلا : { إني لكم رسول أمين { أي مأمون على ما أبلغكموه وقوله تعالى : { وأن لا تعلوا على ا } أي لا تستكبروا عن اتباع آياته والانقياد لحججه والإيمان ببراهينه كقوله D : { إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين { { إني آتيكم بسلطان مبين { أي بحجة ظاهرة واضحة وهي ما أرسله ا تعالى به من الايات البينات والأدلة القاطعات { وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون { قال ابن عباس Bهما وأبو صالح : هو الرجم باللسان وهو الشتم وقال قتادة : الرجم بالحجارة أي أعوذ با الذي خلقني وخلقكم من أن تصلوا إلي بسوء من قول أو فعل { وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون { أي فلا تتعرضوا لي ودعوا الأمر بيني وبينكم مسالمة إلى أن يقضي ا بيننا فلما طال مقامه صلى ا عليه وسلّم بين أظهرهم وأقام حجج ا تعالى عليهم كل ذلك وما زادهم ذلك إلا كفرا وعنادا دعا ربه عليهم دعوة نفذت فيهم كما قال تبارك وتعالى : { وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجبت دعوتكما فاستقيما { وهكذا قال ههنا : { فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون { فعند ذلك أمره ا تعالى أن يخرج ببني إسرائيل من بين أظهرهم من غير أمر فرعون ومشاورته واستئذانه ولهذا قال جل جلاله : { فأسر بعبادي ليلا إنكم متبعون { كما قال تعالى : { ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقا في البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى } .

وقوله D ههنا : { واترك البحر رهوا { إنهم جند مغرقون { وذلك أن موسى E لما جاوز هو وبنو إسرائيل البحر أراد موسى أن يضربه بعصاه حتى يعود كما كان ليصير حائلا بينهم وبين فرعون فلا يصل إليهم فأمره ا تعالى أن يتركه على حاله ساكنا وبشره بأنهم جند مغرقون فيه وأنه لا يخاف دركا ولا يخشى وقال ابن عباس Bهما { واترك البحر رهوا { كهيئته وامضه وقال مجاهد : رهوا طريقا يبسا كهيئته يقول : لا تأمره يرجع اتركه حتى يرجع آخرهم وكذا قال عكرمة والربيع بن أنس والضحاك وقاتدة وابن زيد وكعب الأحبار وسماك بن حرب وغير واحد ثم قال تعالى : { كم تركوا من جنات { وهي البساتين { وعيون * وزروع { والمراد بها الأنهار والابار { ومقام كريم { وهي المساكن الأنيقة والأماكن الحسنة وقال مجاهد وسعيد بن

جبير { ومقام كريم } المنابر وقال ابن لهيعة عن وهب بن عبد الله المعافري عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما قال : نيل مصر سيد الأنهار سخر الله تعالى له كل نهر بين المشرق والمغرب وذو له فإذا أراد الله أن يجري نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه فأمدته الأنهار بمائها وفجر الله تبارك وتعالى له الأرض عيونا فإذا انتهى جريه إلى ما أراد الله جل وعلا أوحى الله تعالى إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره وقال في قول الله تعالى : { كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين } قال : كانت الجنان بحافتي نهر النيل من أوله إلى آخره في الشقين جميعا ما بين أسوان إلى رشيد وكان له تسع خلج : خليج الإسكندرية وخليج دمياط وخليج سردوس وخليج منف وخليج الفيوم وخليج المنهي متصلة لا ينقطع منها شيء عن شيء وزرع ما بين الجبلين كله من أول مصر إلى آخر ما يبلغه الماء وكانت جميع أرض مصر تروى من ستة عشر ذراعا لما قدروا ودبروا من قناطرها وجسورها وخلجها .

{ ونعمة كانوا فيها فاكهين } أي عيشة كانوا يتفكهون فيها فيأكلون ما شاؤوا ويلبسون ما أحبوا مع الأموال والجاهات والحكم في البلاد فسلبوا ذلك جميعه في صبيحة واحدة وفارقوا الدنيا وصاروا إلى جهنم وبئس المصير واستولى على البلاد المصرية وتلك الحواصل الفرعونية والممالك القبطية بنو إسرائيل كما قال تبارك وتعالى : { كذلك وأورثناها بني إسرائيل } وقال في هذه الآية الأخرى { وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون } .

وقال D ههنا : { كذلك وأورثناها قوما آخرين } وهم بنو إسرائيل كما تقدم وقوله سبحانه وتعالى : { فما بكت عليهم السماء والأرض } أي لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي على فقدهم ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله تعالى فيها فقدتهم فلهذا استحقوا أن لا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم وعتوهم وعنادهم قال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده : حدثنا أحمد بن إسحاق البصري حدثنا مكي بن إبراهيم حدثنا موسى بن عبيدة حدثني يزيد الرقاشي حدثني أنس بن مالك B ه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [ما من عبد إلا وله في السماء بابان : باب يخرج منه رزقه وباب يدخل منه عمله وكلامه فإذا مات فقداه وبكى عليه] وتلا هذه الآية { فما بكت عليهم السماء والأرض } وذكر أنهم لم يكونوا عملوا على الأرض عملا صالحا يبكي عليهم ولم يصعد لهم إلى السماء من كلامهم ولا من عملهم كلام طيب ولا عمل صالح فتفقدتهم فتبكي عليهم ورواه ابن أبي حاتم من حديث موسى بن عبيدة وهو الربذي وقال ابن جرير : حدثني يحيى بن طلحة حدثني عيسى بن يونس عن صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد الحضرمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن الإسلام بدأ غريبا وسيعود

غريبا كما بدأ ألا لا غربة على مؤمن ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض] ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم { فما بكت عليهم السماء والأرض } ثم قال : [إنهما لا يبكيان على الكافر] .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عصام حدثنا أبو أحمد يعني الزبيري حدثنا العلاء بن صالح عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله قال : سألت رجلا عليا B هل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتني عن شيء ما سألتني عنه أحد من قبلك إنه ليس من عبد إلا له مصلى في الأرض ومصعد عمله من السماء وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح في الأرض ولا عمل يصعد في السماء ثم قرأ علي B { فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين } وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن منهال عن سعيد بن جبير قال : أتى ابن عباس Bهما رجل فقال : يا أبا العباس رأيت قول الله تعالى : { فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين } فهل تبكي السماء والأرض على أحد ؟ قال B : نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا وله باب في السماء منه ينزل رزقه وفيه يصعد عمله فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله وينزل منه رزقه ففقدته بكى عليه وإذا فقدته مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها ويذكر الله D فيها بكت عليه وإن قوم فرعون لم تكن لهم في الأرض آثار صالحة ولم يكن يصعد إلى الله D منهم خير فلم تبك عليهم السماء والأرض وروى العوفي عن ابن عباس Bهما نحو هذا .

وقال سفيان الثوري عن أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس Bهما قال : كان يقال تبكي الأرض على المؤمن أربعين صباحا وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وغير واحد وقال مجاهد أيضا : ما مات مؤمن إلا بكت عليه السماء والأرض أربعين صباحا قال فقلت له : أتبكي الأرض ؟ فقال : أتعجب وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالسجود والسجود ؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي النحل ؟ وقال قتادة : كانوا أهون على الله D من أن تبكي عليهم السماء والأرض وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد السلام بن عاصم حدثنا إسحاق بن إسماعيل حدثنا المستورد بن سابق عن عبيد المكتب عن إبراهيم قال : ما بكت السماء منذ كانت الدنيا إلا على اثنين قلت لعبيد : أليس السماء والأرض تبكي على المؤمن ؟ قال : ذاك مقامه حيث يصعد عمله قال : وتدرى ما بكاء السماء ! قلت : لا قال : تحمر وتصير وردة كالدهان إن يحيى بن زكريا E لما قتل احمرت السماء وقطرت دما وإن الحسين بن علي Bهما لما قتل احمرت السماء .

وحدثنا علي بن الحسين حدثنا أبو غسان محمد بن عمرو زنيح حدثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد قال : لما قتل الحسين بن علي Bهما احمرت آفاق السماء أربعة أشهر قال يزيد : واحمرارها بكاؤها وهكذا قال السدي في الكبير وقال عطاء الخراساني : بكاؤها أن تحمر

أطرافها وذكروا أيضا في مقتل الحسين B أنه ما قلب حجر يومئذ إلا وجد تحته دم عبيط وأنه كسفت الشمس واحمر الأفق وسقطت حجارة وفي كل من ذلك نظر والظاهر أنه من سخر الشيعة وكذبهم ليعظموا الأمر ولا شك أنه عظيم ولكن لم يقع هذا الذي اختلقوه وكذبوه وقد وقع ما هو أعظم من قتل الحسين B ولم يقع شيء مما ذكروه فإنه قتل أبوه علي بن أبي طالب B وهو أفضل منه بالإجماع ولم يقع شيء من ذلك وعثمان بن عفان B قتل محصورا مظلوما ولم يكن شيء من ذلك وعمر بن الخطاب B قتل في المحراب في صلاة الصبح وكان المسلمين لم تطرقهم مصيبة قبل ذلك ولم يكن شيء من ذلك وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد البشر في الدنيا والاخرة يوم مات لم يكن شيء مما ذكروه ويوم مات إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم خسفت الشمس فقال الناس : خسفت لموت إبراهيم ! فصلى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الكسوف وخطبهم وبين لهم أن الشمس والقمر لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته .

وقوله تبارك وتعالى : { ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين * من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين } يمتن عليهم تعالى بذلك حيث أنقذهم مما كانوا فيه من إهانة فرعون وإذلاله لهم وتسخيرهم إياه في الأعمال المهينة الشاقة وقوله تعالى : { من فرعون إنه كان عاليا } أي مستكبرا جبارا عنيدا كقوله D : { إن فرعون علا في الأرض } وقوله جلت عظمتة { فاستكبروا وكانوا قوما عالين } من المسرفين أي مسرف في أمره سخيף الرأي على نفسه وقوله جل جلاله : { ولقد اخترناهم على علم على العالمين } قال مجاهد { اخترناهم على علم على العالمين } على من هم بين ظهريه وقال قتادة : اختيروا على أهل زمانهم ذلك وكان يقال : إن لكل زمان عالما وهذا كقوله تعالى : { قال يا موسى إني اصطفيتك على الناس } أي أهل زمانه ذلك كقوله D لمريم عليها السلام : { واصطفاك على نساء العالمين } أي في زمانها فإن خديجة B إما أفضل منها أو مساوية لها في الفضل وكذا آسية بنت مزاحم امرأة فرعون وفضل عائشة B على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام وقوله جل جلاله : { وآتيناهم من الآيات } أي الحجج والبراهين وخوارق العادات { ما فيه بلاء مبين } أي اختبار طاهر جلي لمن اهتدى به